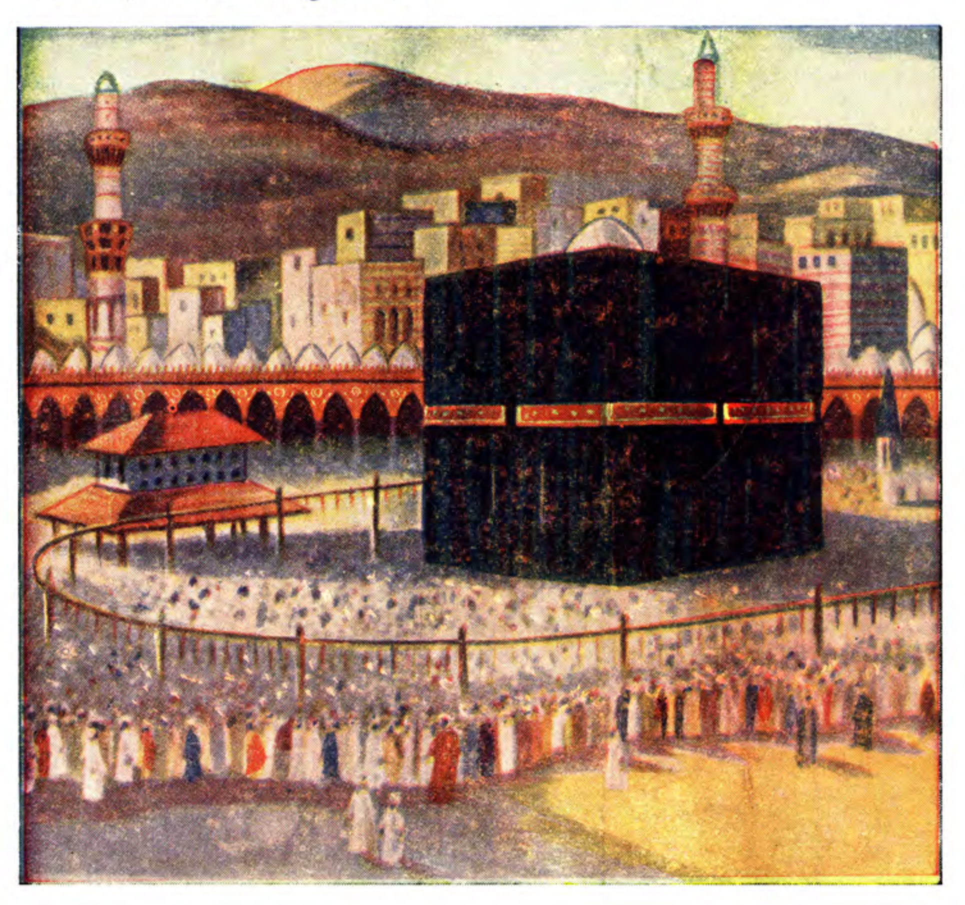
كامل كيلاني

من حياة الرسول

ذكريات أُحُد

حوار بين الأصدقاء الثلاثة



دار مكتبة الأطفال - القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل
٣٢ شارع حسن الأكبر - ت ٥٠٨١٨
٢٨ شارع البستان - ت ٣٣١٥٨

كامل كيلاني

من حياة الرسول

ذكريات أحد

حوار بين الأصدقاء الثلاثة

دار مكتبة الأطفال - القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل
٣٢ شارع حسن الأكبر - ت ٥٠٨١٨
٢٨ شارع البستان - ت ٣٣١٥٨

مطبعة الكيلانى الصغير
٢٨ شارع البستان — باب اللوق
ت ٣٣١٥٨ — القاهرة

حوار بين الأصدقاء الثلاثة

٥ — ذِكْرَياتُ «أُحُدٍ»

— لَمْ أَكَدْ آوِي إِلَى مَضْجَعِي بَعْدَ حِوارِكَ السَّابِقِ ، حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَتَحَدَّثُ بِمَوْقِعَةِ «أُحُدٍ» ، وَتُرَدِّدُ وَقائِعَها وَأَحْداثَها ، وَتَتَناقَلُ ما رَوَيْتَهُ لَنا مِنْ آياتِ الْبُطُولَةِ والْفِدائِيَّةِ وَإِنْكارِ الذَّاتِ .

وَقَدْ شَغَلَنِي ذٰلِكَ عَنِ النَّوْمِ ، فَلَمْ يَزُرِ الْكَرَى جَفْنَيَّ إِلَّا بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . وَسَيَظَلُّ أَثَرُ هٰذِهِ الْغَزْوَةِ عالِقاً بِنَفْسِي ... وَأَظُنُّ يَدَ النِّسْيانِ غَيْرَ قادِرَةٍ عَلَى أَنْ تَمْحُوَهُ أَبَدًا !

— لَيْسَ هٰذا بِعَجِيبٍ مِنْ مِثْلِكَ ، وَلَيْسَ بِكَثِيرٍ عَلَى هٰذِهِ الْمَوْقِعَةِ الْفَرِيدَةِ أَنْ تَتْرُكَ فِي نَفْسِكَ مِثْلَ هٰذا الْأَثَرِ !

— هِيَ مَوْقِعَةٌ فَرِيدَةٌ كَما تَقُولُ ، وَقَدْ تَفَرَّدَتْ بَيْنَ أَحْداثِ التَّارِيخِ وَتَوَحَّدَتْ ، كَما تَفَرَّدَتْ صَخْرَةُ «أُحُدٍ» بَيْنَ صُخُورِ الصَّحْراءِ وَتَوَحَّدَتْ !

أَتَذْكُرُ إِجابَتَكَ الرَّائِعَةَ ، حِينَ سَأَلْتُكَ فِيما مَضَى مِنْ حَدِيثٍ بَيْنَنا ، عَنْ جَبَلِ «أُحُدٍ» : الَّذِي دارَتْ عَلَى جَنَباتِهِ تِلْكَ الْغَزْوَةُ ؟

— ما أَكْثَرَ ما دارَ بَيْنَنا ، يا صاحِبِي ، مِنْ حِوارٍ ! فَأَيَّ سُؤالٍ عَنَيْتَ !

— سَأَلْتُكَ ، يا «رَشادُ» ، عَنْ جَبَلِ «أُحُدٍ» :

«أَكانَ مِنْ شَوامِخِ الْجِبالِ ؟»

فَأَجَبْتَنِي مُبْتَسِمًا : «إِنَّ جَبَلَ «أُحُدٍ» لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ يَكُونَ صَخْرَةً مُرْتَفِعَةً فِي الصَّحْراءِ» .

فَلَمَّا سَأَلَكَ صاحِبِي : «كَيْفَ حَلا لَهُمْ أَنْ يُسَمُّوا الصَّخْرَةَ جَبَلًا ؟» أَسْرَعْتُ أَنا إِلَى إِجابَتِهِ عَنْ سُؤالِهِ : «بِأَنَّ الْعَرَبَ طالَما أَلِفُوا مِثْلَ هٰذِهِ التَّسْمِيَةِ عَلَى سَبِيلِ الدُّعابَةِ والسُّخْرِيَةِ . وَلَعَلَّهُمْ جَرَوْا عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِهِمْ ، كَما يُطْلَقُ عَلَى الْقَزَمِ الْمُتَناهِي فِي الْقِصَرِ لَقَبُ : الْعِمْلاقِ !»

— أَذْكُرُ إِجابَتَكَ الرَّائِعَةَ وَلا أَنْساها ؛ وَقَدْ كُنْتَ مُوَفَّقًا فِيها ، كَما تَعَوَّدْنا مِنْكَ . وَقَدْ ذَكَرْتُ هٰذا الْجَوابَ السَّدِيدَ لِأَبِي ؛ فَهَشَّ لَهُ وابْتَهَجَ ، وَأَثْنَى عَلَيْكَ الثَّناءَ الْجَمِيلَ .

— ذلكَ فَضْلٌ مِنْكَ ، وَمِنْ أَبِيكَ الْجَلِيلِ .

وَلٰكِنْ أَيْنَ إِجابَتِي مِنْ إِجابَتِكَ الْبارِعَةِ الَّتِي أَنارَتْ لَنا سَبِيلَ الْحَقِّ فِي هٰذِهِ التَّسْمِيَةِ ؟

لَقَدْ ذَكَرْتُها لِأَبِي مُنْذُ أَيّامٍ ، فَلَمْ يَتَمالَكْ أَنْ أَظْهَرَ لِي إِعْجابَهُ بِصِدْقِ فِطْنَتِكَ ، وَسَدادِ إِجابَتِكَ .

— الْحَقُّ فِيما قالَ «سَعِيدٌ» ؛ فَقَدْ أَنَرْتَ لَنا يا «رَشادُ» بِهٰذِهِ الْإِجابَةِ السَّدِيدَةِ كَثِيرًا مِنَ الْآفاقِ الْفِكْرِيَّةِ الرَّحْبَةِ ؛ فَإِنَّ جَرْسَ أَلْفاظِكَ ما بَرِحَ يَرِنُّ فِي أُذُنِي كُلَّما اسْتَعَدْتُ حَدِيثَكَ ، فَلا أَتَمالَكُ أَنْ أُرَدِّدَ قَوْلَكَ : سَواءٌ أَكانَ «أُحُدٌ» جَبَلًا أَمْ صَخْرَةً ، هَضْبَةً أَمْ حُفْرَةً ، حَضِيضًا أَمْ ذِرْوَةً ؛ فَقَدْ أَكْسَبَتْهُ تِلْكَ الْغَزْوَةُ الْخالِدَةُ - مِنَ النَّباهَةِ والشُّهْرَةِ - ما لَمْ يَتَمَتَّعْ بِمِثْلِهِ شَوامِخُ الْجِبالِ .

— لَيْسَ لِيَ الْفَضْلُ فِي هٰذِهِ الْإِجابَةِ ، فَقَدْ نَقَلْتُها عَنْ أُسْتاذِ التّارِيخِ ، فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ غَزْوَةِ «أُحُدٍ» .

— لَيْسَ فَضْلُ الِاخْتِيارِ بِأَقَلَّ مِنْ فَضْلِ الِابْتِكارِ !

وَحَسْبُكَ فَضْلًا ، أَنْ سَمِعْتَ الْقَوْلَ فَوَعَيْتَ أَحْسَنَهُ ، وَنَطَقْتَ بِهِ فِي وَقْتِهِ .

— أَمَّا أَنا فَلا أَكْتُمُ إِعْجابي بِمُلاحَظَتِكَ ، حِينَ سَأَلَكَ صاحِبُكَ : « لِماذا أَطْلَقَ الْعَرَبُ عَلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ اسْمَ « أُحُدٍ » ؟ »

فَكَأَنَّما كُنْتَ قَدْ أَعْدَدْتَ جَوابَ سُؤَالِهِ حِينَ قُلْتَ : « إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ أَطْلَقَتْ هٰذِهِ التَّسْمِيَةَ عَلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ ، لِانْفِرادِها فِي الصَّحْراءِ ، وَتَوَحُّدِها وانْقِطاعِها . »

— وَهٰذا أَيْضًا مِنَ الْمَعانِي الَّتِي لا فَضْلَ لِي فِيها ، فَقَدْ قَبَسْتُهُ مِنْ مُطالَعاتِي فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّارِيخِ .

— إِنَّ مَنْ يَغُوصُ عَلَى نَفِيسِ اللَّآلِئِ ، وَيُوَفَّقُ إِلَى اسْتِخْراجِها مِنْ أَعْماقِ الْبِحارِ ، جَدِيرٌ بِالثَّناءِ والْإِكْبارِ !

والْغَوَّاصُ - كَما تَعْلَمُ - لا يَخْلُقُ الدُّرَّةَ وَلا يَصْنَعُها ؛ بَلْ يَغُوصُ عَلَيْها فِي بُطُونِ الْبِحارِ ، كَما تَغُوصُ عَلَى أَمْثالِها فِي بُطونِ الْكُتُبِ . . وَمَتَى وُفِّقَ إِلَى الْعُثُورِ عَلَيْها ، لَمْ يَنْسَ النَّاسُ لَهُ فَضْلَهُ فِي ذٰلِكَ .

— لَقَدْ طالَما ساءَلْتُ نَفْسِي وَأَنا أُفَكِّرُ فِي حِوارِكَ الشَّائِقِ : أَكانَتْ صَخْرَةُ « أُحُدٍ » جَدِيرَةً وَحْدَها بِهٰذِهِ التَّسْمِيَةِ ، أَمْ كانَتْ غَزْوَةُ « أُحُدٍ » - بِهٰذا الْوَصْفِ - أَخْلَقَ وَأَجْدَرَ ؟

— أَيَّ وَصْفٍ تَعْنِيهِ ؟ !

— إِنَّ ما أَعْنِيهِ واضِحٌ لا غُمُوضَ فِيهِ .

أَلَمْ تَقُلْ لنا إِنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي شَهِدَتْ هٰذِهِ الْغَزْوَةَ الْهائِلَةَ ، كانَتْ صَخْرَةً مُنْفَرِدَةً فِي الْفَضاءِ ، مُتَوَحِّدَةً فِي الصَّحْراءِ ! وَإِنَّ الْعَرَبَ أَطْلَقَتْ عَلَيْها اسْمَ «أُحُدٍ» لِتَوَحُّدِها وانْفِرادِها .

فَهَلْ تُخامِرُكَ لَمْحَةٌ مِنْ شَــــكٍّ فِي أَنَّ الْغَزْوَةَ الَّتِي دارَتْ رَحاها فَوْقَ صَخْرَةِ « أُحُدٍ » كانَتْ غَزْوَةً فَذَّةً ، لا نَظِيرَ لَها فى الْغَزَواتِ ؟

— ذٰلِكَ يَقِينٌ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَهَيْهاتَ أَنْ يَظْفَرَ الباحِثُونَ لِمِثْلِ هٰذِهِ الْغَزْوَةِ بِنَظِيرٍ أَوْ شَبِيهٍ !

— فَهَلْ أُطْلِقَتْ هٰذِهِ التَّسْمِيَةُ عَلَى الصَّخْرَةِ ، قَبْلَ الْغَزْوَةِ ، أَوْ بَعْدَها ؟

— أُطْلِقَتِ عَلَيْها قَبْلَها وَبَعْدَها !

— لا رَيْبَ أَنَّ هٰذا مِنْ عَجائِبِ الاِتِّفاقِ ، وَكَأَنَّما شاءَتِ الأَقْدارُ أَنْ تَــكُونَ هٰذِهِ التَّسْمِيَةُ فَأْلًا صادِقًا لِما تَدَّخِرُهُ لَها مِنْ جَلائِلِ الأَعْمالِ ، وَفَواجِعِ الأَهْوالِ !

— ما أَعْجَبَ الآفاقَ الْبَعِيدَةَ الَّتِي يَسْبَحُ فِيها ذِهْنُكَ الْمُتَوَثِّبُ الْمُتَفَرِّدُ بِدَقائِقِ التَّحْلِيلِ !

— خَبِّرْنِي أَيُّها الصَّدِيقُ : بِماذا تَوَحَّدَتْ غَزْوَةُ «أُحُدٍ» ، وَانْفَرَدَتْ عَنْ بَقِيَّةِ الْغَزَواتِ ؟

— بِما حَوَتْهُ - فِي أَثْنائِها - مِنْ غَرائِبِ الْمُفاجَآتِ ، فِي أَقَلِّ زَمَنٍ ، وَأَضْيَقِ رُقْعَةٍ .

أَلَمْ تَرَيا كَيْفَ مَرَّتْ - فِي لَحَظاتٍ خاطِفَةٍ - عَجائِبُ وَأَهْوالٌ ، لَوْ مَرَّ بَعْضُها بِأَخْيِلَةِ النُّوَّامِ لَكانَتْ مِنْ عَجِيبِ الرُّؤَى وَنادِرِ الأَحْلامِ ؟

فَكَيْفَ بِهٰذِهِ الْغَرائِبِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِي عالَمِ الْيَقَظَةِ ، وَشَهِدَها مَنْ شَهِدَها حَقِيقَةً راهِنَةً ، وَرَآها رُؤْيَةَ الْعِيانِ !

— صَدَقْتَ يا « رَشادُ » ؛ فَإِنَّ ما تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمُفارَقاتِ ، وَانْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُفاجَآتِ ، كانَ بِأَضْغاثِ الأَحْلامِ ، وَكاذِباتِ الرُّؤَى وَتُرَّهاتِ الأَوْهامِ ؛ أَشْبَهَ مِنْهُ بِصادِقِ الْحَقائِقِ ، وَصَحِيحِ الْوَقائِعِ .

— إِنَّ وَقائِعَها وَأَحْداثَها كانَتْ عَلَى صِدْقِها أَعْجَبَ مِنَ الْخَيالِ ، وَأَغْرَبَ مِنَ الأَساطِيرِ .

— حَسْبُ الْقِصَّةِ أَنْ يَكُونَ فِيها بَطَلٌ أَوِ اثْنانِ ، فَأَمَّا أَنْ تَجْمَعَ الْقِصَّةَ بَيْنَ عَشَراتٍ مِنْ أَفْذاذِ الأَبْطالِ ؛ يَصْلُحُ

كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِهِمْ أَنْ يَكُونَ بَطَلَ عَصْرِهِ ، وَأَوْحَدَ زَمانِهِ ، وَنَسِيجَ وَحْدِهِ فِي مَيْدانِهِ ، والْفِدائُِّ الْعَظِيمَ بَيْنَ أَقْرانِهِ ؛ فَذٰلِكَ مالا يَدُورُ بِالْبالِ ، وَهُوَ - عَلَى ذٰلِكَ - أَعْجَبُ مِنَ الْخَيالِ !

— صَدَقْتَ . فَقَدْ رَأَيْنا بَيْنَ قادَةِ هٰذِهِ الْغَزْوَةِ صَفْوَةً مُخْتارَةً مِنْ قادَتِها الْأَفْذاذِ ، لَوْ نُسِبَ الْعَصْرُ كُلُّهُ إِلَى واحِدٍ مِنْهُمْ ، كَما تَقُولُ ، لَما كانَ ذٰلِكَ مُسْتَكْثَرًا عَلَيْهِ !

— أَيُّ قُوًى - مِنْ قُوَّاتِ الْخَيْرِ والشَّرِّ - كانَتْ تَتَطاحَنُ وَتَصْطَرِعُ فِي ذٰلِكَ الْأَتُّونِ الصَّاخِبِ الْمُلْتَهِبِ !

— وَأَيُّ مُفارَقاتٍ مُتَلاحِقَةٍ مِنَ النَّصْرِ إِلَى الْهَزِيمَةِ ، وَمِنَ الْهَزِيمَةِ إِلَى النَّصْرِ ؟!

— لَقَدْ كانَتْ ، فِي الْحَقِّ ، غَزْوَةً جَدِيرَةً بِكُلِّ ما تَقُولُ

كانَتْ - كَما حَدَّثْتَنا - أَمَلًا لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَيَأْسًا لا يَلْبَثُ أَنْ يَشْتَدَّ ، وَأَنْوارًا مِنَ الْحَقِّ تَسْطَعُ فَجْأَةً فَتَبْهَرُ الْأَنْظارَ ، وَيَكادُ سَناها يَخْطَفُ بِالْأَبْصارِ .. ثُمَّ تَعْقُبُها سُحُبٌ مِنَ الْيَأْسِ قاتِمَةٌ شَدِيدَةُ الْحُلْكَةِ ؛ لا يَنْفُذُ مِنْ خِلالِها شُعاعٌ مِنَ الْأَمَلِ ، وَلا يَخْرُجُ مِنْها بَصِيصٌ مِنَ الرَّجاءِ .

— ثُمَّ ماذا ؟

— ثُمَّ تَتَبَدَّدُ سُحُبُ الْيَأْسِ فِي لَمْحَةٍ خاطِفَةٍ ، وَتَنْقَشِعُ الظُّلُماتُ بِمِثْلِ السُّرْعَةِ الَّتِي تَراكَمَتْ فِيها ، وَتَعُودُ بَشائِرُ الْفَوْزِ بِأَسْرَعَ مِمَّا لاحَتْ نُذُرُ الْهَزِيمَةِ .

— ثُمَّ ماذا ؟

— ثُمَّ يا لَلْعَجَبِ ! يَصْحُو الْجَوُّ ، وَيَنْبَلِجُ نُورُ الْحَقِّ ، فَيُبَدِّدُ حَنادِسَ الشِّرْكِ ، وَيَكْشِفُ كاذِباتِ الضَّلالاتِ وَأَباطِيلَ الْأَوْهامِ !

— صَدَقْتَ أَيُّها الْمُحَدِّثُ اللَّبِقُ ، والْمُؤَرِّخُ النَّيِّرُ الْبَصِيرَةِ !

— لَوْ سَمِعَ حِوارَنا أَحَدٌ مِمَّنْ لَمْ يَدْرُسْ هٰذِهِ الْغَزْوَةَ كَما دَرَسْناها ، لَحَسِبَنا نَغْلُو فِي تَقْدِيرِنا ، وَنُسْرِفُ فِي وَصْفِنا .

— أَيُّ أَبْطالٍ شَهِدَتْها تِلْكَ الْغَزْوَةُ !

كَيْفَ اجْتَمَعَتْ كُلُّ هٰذِهِ الْقُوَى الْهائِلَةِ فِي زَمَنٍ واحِدٍ وَمَكانٍ واحِدٍ ، وَضَمَّتْها رُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ فَضاءِ الْأَرْضِ ؟!

أَيُّ أَفْذاذٍ مِنَ الرِّجالِ تَضِيقُ أَسْفارُ التَّارِيخِ الْفَسِيحَةُ بِذِكْرِ فَضائِلِهِمْ وَمَزاياهُمْ ، وَتَفْصِيلِ ما أَسْدَوْهُ لِلْإِنْسانِيَّةِ مِنْ جَلِيلِ الْأَعْمالِ .

هٰذا «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طالِبٍ» يُرَوِّعُ الْأَعْداءَ وَيُفَزِّعُهُمْ ، وَإِلَى جانِبِهِ «أَبُو بَكْرٍ» وَ «عُمَرُ» وَ «حَمْزَةُ» .

وَهٰذا «أَبُو دُجانَةَ» بَطَلُ هٰذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ ، لا تَقِفُ أَمامَهُ لَحْظَةً ، حَتَّى يَبْهَرَنا ما يَقُومُ بِهِ «أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ» مِنْ آياتِ الْفِدائِيَّةِ الْعالِيَةِ .

وَهٰذِهِ «أُمُّ عُمارَةَ» الْأَنْصارِيَّةُ ، يَحارُ الْمُتَأَمِّلُ إِذا حاوَلَ أَنْ يَلْتَمِسَ لَها شَبِيهًا بَيْنَ الْفِدائِيِّينَ فِي جَمِيعِ الْعُصُورِ وَمُخْتَلِفِ الْأَزْمانِ !

وَهٰذا «سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ» ، وَناهِيكَ بِهِ !

أَلَا ما أَشَدَّ حَيْرَةَ الْمُتَأَمِّلِ الْمُنْصِفِ إِذا حاوَلَ أَنْ يُسَجِّلَ بَعْضَ ما قامَ بِهِ واحِدٌ مِنْهُمْ ، مِنْ خالِدِ الْأَعْمالِ .

— صَدَقْتَ يا «رَشادُ» ، وَقَدْ حارَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ فَلَمْ يَعْرِفُوا : أَيَّ جَلائِلِهِمْ يُثْبِتُونَ ، وَبِأَيِّها يُشِيدُونَ ؟

— إِنَّ صُورَةَ «أَبِي دُجانَةَ» لَمْ تَبْرَحْ مُخَيِّلَتِي قَطُّ ، مُنْذُ رَوَيْتَ لَنا طَرَفًا مِنْ أَخْبارِهِ . وَلا أَزالُ أَتَمَثَّلُ مَوْقِفَهُ الْعَظِيمَ ، وَهُوَ يَسْتَمِيتُ فِي الدِّفاعِ عَنِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ .

— ما أَرْوَعَهُ مَنْظَرًا ، وَأَكْرَمَهُ مَوْقِفًا ، إِذْ يَنْحَنِي عَلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ؛ لِيَجْعَلَ ظَهْرَهُ غَرَضًا لِنِبالِ الْأَعْداءِ ، وَهَدَفًا لِسِهامِهِمْ ، حَتَّى لا يَنْفُذَ مِنْها شَيْءٌ إِلَى الرَّسُولِ الْأَمِينِ !

— يا لَها مِنْ مَواقِفَ لا تُنْسَى ! وَأَيْنَ أَنْتُما مِنْ « أَنَسِ ابْنِ النَّضْرِ » . كَيْفَ يَتَطَرَّقُ النِّسْيانُ إِلَى هٰذا الْفِدائِيِّ الْعَظِيمِ ؟

ما أَرْوَعَهُ وَهُوَ يَنْدَفِعُ إِلَى حِياضِ الْمَوْتِ ؛ كَما يَنْدَفِعُ الْهائِمُ الْعَطْشانُ إِلَى الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ !

— أَيُّ بُطُولَةٍ فَذَّةٍ تَبْهَرُ الْإِنْسانَ حِينَ يَتَمَثَّلُهُ وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى الْمَهْزُومِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ نَصْرُهُمْ هَزِيمَةً ؛ فَلا يَكادُ يَسْمَعُهُمْ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِمَوْتِ الرَّسُولِ ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْيَأْسُ كُلَّ مَبْلَغٍ ؛ حَتَّى يُفِيضَ عَلَيْهِمْ مِنْ رُوحِهِ الْوَثّابَةِ الْفَتِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَزِدْها الْهَزِيمَةُ إِلّا ثَباتًا عَلَى عَقِيدَتِهِ وَإِصْرارًا .

وَلا يَزالُ يُلْهِبُ صُدُورَهُمْ بِنارِ عَزِيمَتِهِ ؛ حَتَّى يَنْقَلِبَ يَأْسُهُمْ أَمَلًا ، وَتَرَدُّدُهُمْ ثَباتًا .

— يالَها مِنْ ساعَةِ ذُعْرٍ وَفَزَعٍ ، لا يَتَصَوَّرُها أَبْعَدُ النّاسِ خَيالًا .

ــ حَسْبُكَ أَنَّ أَعْظَمَ أَبْطالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ «أَبُو بَكْرٍ» وَ «عُمَرُ» قَدْ أَذْهَلَهُمُ النَّبَأُ الْهائِلُ عَنْ مُتابَعَةِ الْحَرْبِ ، بَعْدَ أَنْ أَبْلَوْا فِيها أَعْظَمَ الْبَلاءِ . . وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَثْنِ مِنْ عَزِيمَةِ «النَّضْرِ» ؛ بَلْ ضاعَفَ مِنْ قُوَّتِهِ .

ــ صَدَقْتَ . فَلا أَزالُ أَتَمَثَّلُهُ وَهُوَ يَرَى الْمُسْلِمِينَ مَذْهُولِينَ واجِمِينَ ، فَيَسْأَلُهُمْ :

ما يُجْلِسُكُمْ هُنا ؟

فَلا يَكادُونَ يُفْضُونَ إِلَيْهِ بِتِلْكَ الشَّائِعَةِ الَّتِي تَقْصِمُ الظُّهُورَ ؛ حَتَّى يَزْدادَ ضَراوَةً وَتَحَمُّسًا لِلْأَخْذِ بِثَأْرِ الرَّسُولِ ، وَيَنْدَفِعَ انْدِفاعَ السَّيْلِ الْجارِفِ إِلَى الْأَعْداءِ وَهُوَ يَصِيحُ بِالْمُسْلِمِينَ :

«إِذا كانَ الرَّسُولُ قَدْ ماتَ ، فَماذا تَصْنَعُونَ بِالْحَياةِ بَعْدَهُ !

قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى ما ماتَ عَلَيْهِ» .

ــ كَذٰلِكَ يَفْعَلُ الْأُمَناءُ الْمُخْلِصُونَ .

ــ وَلا أَزالُ أَذْكُرُهُ وَهُوَ يَنْدَفِعُ إِلَى الْأَعْداءِ ضَرْبًا وَطَعْنًا وَتَقْتِيلًا لِيَثْأَرَ لِنَبِيِّهِ مِنْهُمْ ، لا يُبالِي عَواقِبَ انْدِفاعِهِ ، مُسْتَرْخِصًا الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ غايَتِهِ . .

وَلا يَزالُ كَذٰلِكَ حَتَّى تَنُوشَهُ سُيُوفُ الأَعْداءِ ، وَطَعَناتُ رِماحِهِمْ ، وَوَخَزاتُ سِهامِهِمْ ؛ فَيَتَخَرَّقَ جِسْمُهُ ، بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِسَبْعِينَ طَعْنَةً .

— اللهُ أَكْبَرُ ! إِنَّها سَبْعُونَ وِسامًا مِنْ أَوْسِمَةِ الْمَجْدِ !

— سَبْعُونَ وِسامًا مِنْ أَوْسِمَةِ السَّماءِ ، لا أَوْسِمَةِ الأَرْضِ .

— تَشْرِيفٌ إِلٰهِيٌّ عَظِيمٌ ، لا يَرْقَى إِلَيْهِ تَشْرِيفٌ إِنْسانِيٌّ مَهْما يَكُنْ مَصْدَرُهُ .

وَهٰكَذا تَمَزَّقَ جُثْمانُهُ الطَّاهِرُ ، وَتَخَرَّقَ جِلْدُهُ ؛ فَأَصْبَحَ كالإِسْفِنْجِ ، لِكَثْرَةِ ما بِهِ مِنَ الطَّعَناتِ !

— نَعَمْ يا «سَعِيدُ» ، لَقَدْ مَزَّقَ الأَعْداءُ جِسْمَ هٰذا الْفِدائِيِّ الشُّجاعِ ؛ حَتَّى عَجَزَ أَقْرَبُ الْمُقَرَّبِينَ لَهُ ، وَأَوْثَقُهُمْ صِلَةً بِهِ ، أَنْ يَتَعَرَّفَهُ .

— لَعَلَّكَ تَعْنِي أُخْتَهُ ، حِينَ فَتَّشَتْ عَلَيْهِ بَيْنَ مَنْ رُزِقُوا الشَّهادَةَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، فَلَمْ تَهْتَدِ إِلَيْهِ . . وَكادَتْ تَيْأَسُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ، لَوْ لَمْ تُرْشِدْها بَنانُهُ إِلَيْهِ .

— لَقَدْ عَرَفَهُ اللهُ !... فَلا يَعْنِيهِ أَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ .

— كانَ فَناءُ الْجِسْمِ ثَمَنًا لِخُلُودِ الرُّوحِ !

— مَتَى ظَفِرَ الرُّوحُ بِرِضْوانِ اللهِ ، ظَفِرَ بِكُلِّ ما يَتَمَنَّاهُ .

— « فَحُبَّ بِهِ جِسْمًا إِلَى الأَرْضِ قَدْ هَوَى
وَحُبَّ بِهِ رُوحًا إِلَى اللهِ يَعْرُجُ ! »

— ما أَكْثَرَ الصُّوَرَ الرَّائِعَةَ الَّتِي يَجْتَلِيها مَنْ يَتَتَبَّعُ أَبْطالَ هٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ !

إِنَّها لَتَزْدادُ رَوْعَةً وَإِشْراقًا ، كُلَّما أَطالَ تَأَمُّلَهُ فِيها !

— إِنَّ صُورَةَ « أُمِّ عُمارَةَ الأَنْصارِيَّةِ » صُورَةٌ فَرِيدَةٌ مِنْ صُوَرِ الْبُطُولَةِ النِّسْوِيَّةِ الْخالِدَةِ ! إِنَّها صُورَةٌ رائِعَةٌ لِأَشْرَفِ أَمْثِلَةِ الْفِدائِيَّةِ ، وَأَعْلَى نَماذِجِ الْوَفاءِ .

ما ذَكَرْتُها ـ أَيُّها الصَّدِيقانِ ـ إِلَّا ذَكَرْتُ قَوْلَ « الْمُتَنَبِّي » : شاعِرِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَظِيمِ ، حِينَ وَصَفَ أُمَّ « سَيْفِ الدَّوْلَةِ » :

« فَلَوْ كانَ النِّساءُ كَمِثْلِ هٰذِي
لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلَى الرِّجالِ
فَما التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
وَلا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلالِ ! »

— ماذا صَنَعَتْ « أُمُّ عُمارَةَ » أَيُّها الْباحِثُ الدَّقِيقُ ؟

— كانَتْ تَدُورُ عَلَى الظّامِئِينَ وَالْعِطاشِ مِنْ مُجاهِدِي الْمُسْلِمِينَ أَوَّلَ النَّهارِ ـ والْمَعْرَكَةُ دائِرَةُ الرَّحَى ، مَشْبُوبَةُ الْأُوارِ ـ تَأْسُو الجَرِيحَ ، وَتَسْقِي الْعَطْشانَ .

— ما أَعْجَبَ ما تَقُولُ ، يا « رَشادُ » !

كَأَنَّما تَعْنِي أَنَّ هٰذِهِ الْمُجاهِدَةَ الْعَظِيمَةَ كانَتْ تُؤَدِّي ـ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا ـ ما تُؤَدِّيهِ جَماعاتُ « الْهِلالِ الْأَحْمَرِ » فِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ !

— ذٰلِكَ ما أَعْنِيهِ . فَأَيُّ عَجَبٍ فِيهِ ؟

لَقَدْ كانَتْ تَحْمِلُ عَلَى كَتِفَيْها السِّقاءَ !

— ماذا تَعْنِي بِالسِّقاءِ ؟

— أَعْنِي قِرْبَةَ الْماءِ . كانَتْ تَدُورُ بِها ـ كَما قُلْتُ ـ عَلَى الْمُحارِبِينَ ؛ لِتَسْقِيَ مِنْهُمُ الْعِطاشَ والظّامِئِينَ .

— يا لَهُ مِنْ عَمَلٍ إِنْسانِيٍّ جَلِيلٍ !

— فَهَلْ تَدْرِيانِ ماذا صَنَعَتْ « أُمُّ عُمارَةَ » حِينَ دارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، واسْتَبْدَلُوا بِالنَّصْرِ خِذْلانًا ؟

عَزَّ عَلَيْها أَنْ تَقِفَ أَمامَ الْأَعْداءِ ضَعِيفَةَ الْحِيلَةِ ، مَكْتُوفَةَ الْيَدَيْنِ .

— أَتَعْنِى أَنَّها اشْتَرَكَتْ فِى الْحَرْبِ ؟

— كَيْفَ تَقُولُ : اشْتَرَكَتْ فِى الْحَرْبِ ؟

أَلَمْ يَكُنْ صَنِيعُها مُنْذُ بَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ اشْتِراكًا فِى الْحَرْبِ ؟

— بَلَى ، وَلٰكِنَّكَ تَعُدُّهُ عَمَلًا هَيِّنًا فَتَقُولُ : « إِنَّها لَمْ تَشَأْ أَنْ تَقِفَ مَكْتُوفَةَ الْيَدَيْنِ » .

— كانَ عَمَلُها - عَلَى فَضْلِهِ - جِهادًا هَيِّنًا إِذا قِيسَ إِلَى ما صَنَعَتْهُ بَعْدُ !

— ماذا صَنَعَتْ ؟

— رَمَتْ قِرْبَةَ الْماءِ وَأَلْقَتْ بِها جانِبًا ، واسْتَبْدَلَتْ بِها السَّيْفَ والْقَوْسَ .

— اللهُ أَكْبَرُ . . . لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ !

— وَلِكُلِّ وَقْتٍ أُسْلُوبٌ مِنْ أَساليبِ النِّضالِ .

— فَراحَتْ « أُمُّ عُمارَةَ » الْمُجاهِدَةُ الْمُسْتَبْسِلَةُ تَضرِبُ الْأَعْداءَ بِسَيْفِها ، وَتَرْمِيهِمْ عَنْ قَوْسِها بِنِبالِها . لا تَدَّخِرُ فِى ذٰلِكَ جُهْدًا ؛ حَتَّى أَثْخَنَتْها الْجِراحُ ، فَهَوَتْ عَلَى الْأَرْضِ مَنْزُوفَةَ الدِّماءِ ، خائِرَةَ الْقُوَى .

— يا لَها مِنَ فِدائِيَّةٍ عَظِيمَةِ النَّفْسِ ، كَبِيرَةِ الْقَلْبِ .

— أَمَّا « حَمْزَةُ » : عَمُّ الرَّسُولِ ؛ فَما أَظُنُّكُما قَدْ نَسِيتُما ما صَنَعَهُ مِنَ الْأَعاجِيبِ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ الطَّاحِنَةِ .

— أَعْزِزْ عَلَيَّ ما لَقِيَهُ هٰذا الْمُجاهِدُ الْعَظِيمُ مِنْ غَدْرِ « وَحْشِيٍّ » !

— كُلُّ شَيْءٍ عُرْضَةٌ لِلنِّسْيانِ ، إِلَّا مَصْرَعَ « حَمْزَةَ » وَما صَحِبَهُ مِنْ مَصارِعِ هٰؤُلاءِ الْأَبْطالِ .

— إِنَّ بُطُولَةَ « حَمْزَةَ » وَهَوْلَ مَصْرَعِهِ قَدْ أَصْبَحا فِي سِجِلِّ التَّارِيخِ صَفْحَةَ مَجْدٍ وَفَخارٍ ، لِكُلِّ ماجِدٍ مِنَ الْأَطْهارِ ، وَشَهِيدٍ مِنَ الْأَبْرارِ .

— كانَتْ هٰذِهِ الْغَزْوَةُ ، كَما رَأَيْتُما ، مُنْفَرِدَةً فِي بابِها ، مُتَوَحِّدَةً فِي أَحْداثِها . كانَتْ نَسِيجَ وَحْدِها فِي الْحُروبِ والْغَزَواتِ ؛ فَلا عَجَبَ إِذا غَمَرَتْ نفسَ عارِفِها بِفَيْضٍ مِنَ الرَّوائِعِ ، وَسَيْلٍ مِنَ الذِّكْرَياتِ .

كانَتْ - كَما حَدَّثْتُكُما - مَمْلُوءَةً بِأَلْوانٍ مُتَناقِضَةٍ مِنَ الْأَسْرارِ والْمُفاجَآتِ ، يا « رَشادُ » .

وَقَلَّما رَأَيْنا لَوْحًا رائِعًا مِنْ أَلْواحِ الْجِهادِ الرَّائِعِ ، إِلَّا وَجَدْنا ما يُقابِلُهُ مِنْ صُوَرِ النِّضالِ الْحاقِدِ .

كُلُّ صُورَةٍ تُذَكِّرُنا بِما يُقابِلُها فِي الْمَيْدانِ الْآخَرِ . « والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ » .

وَأَيُّ ضِدٍّ أَغْرَبُ مِنْ صُورَةِ « أُمِّ عُمارَةَ » الَّتِي وَهَبَتْ حَياتَها لِلتَّخْفِيفِ عَنِ الْجَرْحَى ، وَصُورَةُ « هِنْدٍ » زَوْجِ « أَبِي سُفْيانَ » الَّتِي لا هَمَّ لَها إِلَّا الْإِجْهازُ عَلَيْهِمْ ، وَبَقْرُ بُطُونِ الْمُجاهِدِينَ .

— صَدَقْتَ . فَإِنَّ إِحْداهُما تُمَثِّلُ الْفَناءَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، عَلَى حِينَ تُمَثِّلُ الْأُخْرَى صُورَةَ الْفَناءِ فِي نَصْرِ الْباطِلِ .

— وَهٰكَذا تَتَجَلَّى فِي هٰذِهِ الْمَوْقِعَةِ ـ أَيُّها الصَّدِيقانِ ـ أَمامَ كُلِّ فِدائِيٍّ مِمَّنْ يَدْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ إِلَى اقْتِحامِ الصُّفُوفِ لِلظَّفَرِ بِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ : الْفَوْزِ أَوِ الْجَنَّةِ ؛ صُورَةٌ كَرِيهَةٌ بَغِيضَةٌ لِآخَرَ مِمَّنِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الشَّيْطانُ ، فَأَنْساهُ نَفْسَهُ وَأَنْساهُ اللهَ ؛ فَلَمْ يَتَوَرَّعْ عَنِ اقْتِرافِ كُلِّ كَبِيرَةٍ .

— إِنَّ الْحِقْدَ والْإِيمانَ كِلَيْهِما يَدْفَعُ صاحِبَهُ إِلَى الِاسْتِماتَةِ والِاسْتِبْسالِ ؛ فَلا يُبالِي نَتائِجَ ما يَفْعَلُهُ ، وَلا يُقَدِّرُ لِلْعَواقِبِ حِساباً .

— صَدَقْتَ ، يا « صَلاحُ » . وَلٰكِنَّ هُناكَ شَيْئًا غَيْرَ الْإِيمانِ والْحِقْدِ ، هُوَ الدَّافِعُ إِلَى هٰذِهِ الْغايَةِ .

— بِماذا تُسَمِّيه ؟

— تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْلِقَ عَلَيْهِ طائِفَةً مِنَ الأَسْماءِ ، تَلْتَقِي كُلُّها عِنْدَ غايَةٍ واحِدَةٍ .

— ماذا تَعْنِي ؛ فَلا أَكادُ أَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا تَقُولُ ؟

— سَأُقَدِّمُ الْمَثَلَ ، وَلَكُما أَنْ تَسْتَخْرِجا مِنْهُ ما تَشاءانِ .

— قُلْ ، فَنَحْنُ سامِعانِ .

— إِلَيْكُما رَجُلًا مِنَ الْمُنافِقِينَ انْدَفَعَ إِلَى الْحَرْبِ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ؛ غَيْرَ طامِعٍ فِي جَنَّةٍ ، وَلا مُلْتَمِسٍ مَرْضاةَ اللهِ ، ولا راغِبٍ فِي نُصْرَةِ رَسُولِهِ ؛ يَقْتَحِمُ الْمَيْدانَ فِي جُرْأَةِ الْمُسْتَمِيتِ ، وَيَصُولُ صِيالَ الأُسُودِ . وَلا يَزالُ يَسْتَقْبِلُ الأَعْداءَ مُسْتَبْسِلًا ، وَيُطِيحُ بِالرُّءُوسِ مُسْتَقْتِلًا ، فَهُوَ لا يُقَصِّرُ فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُ ، وَلا يَفْتُرُ عَنْ تَثْبِيتِ دَعائِمِ الدِّينِ بِرَغْمِ أَنْفِهِ ، والْحَقُّ يَلْعَنُهُ ، والدِّينُ مِنْهُ بَراءٌ .

— ما أَكْثَرَ وَلَعَكَ بِالأَحاجِيِّ والأَلْغازِ !

— هٰذِهِ أُحْجِيَّةٌ ، فَهَلا جَلَوْتَها لَنا .

— أَتَقُولُ ، يا « رَشادُ » : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟

— كانَ مِنَ الْمُنافِقِينَ . لَمْ يَظْفَرْ قَلْبُهُ قَطُّ بِحَلاوَةِ الْإِيمانِ ، وَلا عَمَرَ فُؤادَهُ بِنُورِ الْيَقِينِ .

— فَكَيْفَ جاهَدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَاسْتَبْسَلَ فِي مُحارَبَةِ الْمُشْرِكِينَ ؟

— ما أَجْدَرَكُما بِالتَّعَجُّبِ مِمَّا تَسْمَعانِ ؛ فَإِنَّ عَجَبِي مِنْ هٰذا الْمُنافِقِ لا يَزالُ - إِلَى الْيَوْمِ - يَتَجَدَّدُ كُلَّما ذَكَرْتُ قِصَّتَهُ .

— ما أَبْرَعَكَ فِي تَشْوِيقِ سامِعِكَ إِلَى مُتابَعَةِ حَدِيثِكَ !

— خَبِّرْنِي عَنِ اسْمِ هٰذا الرَّجُلِ ؛ إِنْ كُنْتَ تَذْكُرُهُ .

— ما كُنْتُ أَنْساهُ فَأَذْكُرَهُ .

— فَما اسْمُهُ ؛ يا « رَشادُ » ؟

— اِسْمُهُ « قُزْمانُ » .

— أَجادًّا تَقُولُ ؟ فَما سَمِعْتُ بِهٰذا الِاسْمِ .

— ما تَعَوَّدْتُ غَيْرَ الْجِدِّ ، وَهَلْ غَيْرَ الْجِدِّ تَتَوَقَّعانِ مِمَّنْ يَتَصَدَّى لِلْحَدِيثِ عَنْ هٰذِهِ الْأَحْداثِ الْجَلِيلَةِ ؟

— لَوْ قُلْتَ : إِنَّ اسْمَهُ « قَزْمانِ » لَفَهِمْنا مَعْناهُ .

— أَيَّ مَعْنًى تَقْصِدانِ ؟

ــ الْقَزْمُ : الصَّغِيرُ الْمُفرِطُ فِي قِصَرِهِ ، كَمَا تَعْلَمُ .

ــ والْقَزْمانِ : الْقَصِيرانِ الْمُفرطانِ فِي قِصَرِهِما .

ــ يُمْكِنُ ذٰلِكَ إِذا كانَتْ قامَتُهُ فِي طُولِ قَصِيرَيْنِ .

ــ لَعَلَّهُ كانَ مُفرِطًا فِي الْقِصَرِ ، أَوْ مُفْرِطًا فِي الطُّولِ .

ــ كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ ؟

ــ أَلا يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَلَّفَ مِنَ الْقَصِيرَيْنِ طَوِيلٌ واحِدٌ ؟

ــ لَسْتُ أَعْرِفُ : أَقَصِيرًا كانَ أَمْ طَوِيلًا . وَما يَعْنِينِي أَكانَ فِي طُولِ قامَتَيْنِ مِنْ قاماتِ الأَقْزامِ ، أَمْ قاماتِ الْعَمالِقَةِ ؟ وَلٰكِنَّ الَّذِي يَعْنِينِي أَنَّ ما تَرَكَهُ صَنِيعُهُ فِي نَفْسِي مِنْ آثارٍ ، لَنْ يُنْسَى مَدَى الْحَياةِ .

ــ خَبِّرْنا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ : ماذا كانَ هٰذا الرَّجُلُ ، وَهُوَ ــ فِيما أَخْبَرْتَنا ــ غَيْرُ مُسْلِمٍ وَلا مُشْرِكٍ ؟

ــ كانَ « الْحارِثُ الْعَبْسِيُّ » هٰذا مِمَّنْ يُبْطِنُ الْكُفْرَ وَيَتَظاهَرُ بِالْإِسْلامِ .

ــ الآنَ فَهِمْتُ ما تَعْنِيهِ ، فَماذا صَنَعَ هٰذا الأُلْعُبانُ ؟

ــ كانَ الْجِهادُ فَرْضًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ قادِرٍ . وَكانَ « قَزْمانُ » يَتَظاهَرُ بِالْإِسْلامِ . فَلَمَّا خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى غَزْوَةِ « أُحُدٍ » وَلَمْ يُظاهِرْهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُمْ ، اتَّهَمَهُ قَوْمُهُ بِالْجُبْنِ .

— كُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ عَلَى الْعَرَبِيِّ ؛ إِلَّا أَنْ يُرْمَى بِهٰذِهِ النَّقِيصَةِ .

— وَلا سِيَّما إِذا عَيَّرَهُ بِها النِّساءِ !

— ماذا قُلْنَ لَهُ ؟

— قالَتْ بَعْضُ النِّساءِ :

يا « قُزْمانُ » : أَلَا تَسْتَحِي مِمَّا صَنَعْتَ ؟ وَما أَنْتَ إِلَّا امْرَأَةٌ .

— فَكانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِخُرُوجِهِ إِلَى ساحَةِ الْحَرْبِ .

— بِلا رَيْبٍ . وَهَلْ يَصْنَعُ عَرَبِيٌّ مِثْلُهُ غَيْرَ ما صَنَعَ ؟

— أَتْمِمْ حَدِيثَكَ ، يا « رَشادُ » .

— وَسُرْعانَ ما أَعَدَّ عُدَّتَهُ ، وانْدَفَعَ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ لا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ؛ حَتَّى أَدْرَكَهُمْ ، وَهُمْ يَتَأَهَّبُونَ لِخَوْضِ الْمَعْرَكَةِ الطَّاحِنَةِ .

— أَتَعْنِي أَنَّه خاضَها مَعَهُمْ ؟

— كانَ مِنَ السُّبَّاقِ إِلَى الْقِتالِ : وَقَفَ أَوَّلَ الصُّفُوفِ ، وانْدَفَعَ يَرْمِي الْمُشْرِكِينَ بِنِبالِهِ ، حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا ، فَلَمَّا دارَتِ الْمَعْرَكَةُ مِنَ النَّصْرِ إِلَى الْهَزِيمَةِ ـ كَما تَعْلَمانِ ـ انْقَضَّ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَخَتَمَ يَوْمَهُ بِقَتْلِهِمْ .

— ثُمَّ ماذا صَنَعَ ؟

— لَمْ يَرَ أَمامَهُ ، بَعْدَ ذٰلِكَ ، غَيْرَ الْفِرارِ .

— فَكَيْفَ رَضِيَ بِالْفِرارِ ؟

— كَلَّا ، لَمْ يَرْضَ بِهِ .. لَقَدْ فَرَّ إِلَى الْمَعْرَكَةِ ، لِيَنْجُوَ مِنْ تُهَمَةِ الْجُبْنِ ؛ فَكَيْفَ يَفِرُّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ بَعْدَ أَنْ خَلَصَ مِنْ تِلْكَ النَّقِيصَةِ ، وَنَجا مِنَ الْقَتْلِ ؟

— فَماذا صَنَعَ ؟

— آثَرَ الْمَوْتَ عَلَى الْهَرَبِ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ !

— شَجاعَةُ أَخْرَقَ ، وَخاتِمَةُ أَحْمَقَ !

— فَعَلَ فِعْلَ الْأَطْهارِ ، وَماتَ مَوْتَ الْفُجَّارِ !

— «مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَمالَهُ مِنْ هادٍ !»

— لَسْتُ أَدْرِي لِماذا أَشْعُرُ بِالشَّكِّ يَمْلَأُ نَفْسِي مِنْ قَبُولِ هٰذِهِ الرِّوايَةِ ؟

— ماذا يَرِيبُكَ مِنْها ؛ أَيُّها الصَّدِيقُ ؟

— يُشَكِّكُنِي فِيها ما يَبْدُو عَلَى نَسْجِها مِنْ مَظاهِرِ التَّلْفِيقِ .

— أَيُّ تَلْفِيقٍ يَبْدُو عَلَيْها ؟

— لِماذا تَرْمِيهِ بِالنِّفاقِ ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَن يَكُونَ تَرَدُّدُهُ أَوَّلَ الأَمْرِ ، كانَ مَصْدَرَهُ الْخَوْفُ ! . ثُمَّ عَمَرَ الإِيمانُ قَلْبَهُ ، كَما عَمَرَ قَلْبَ غَيْرِهِ مِنَ الرِّجالِ ؛ فانْقَلَبَ أَسَدًا هَصُورًا يَقْتَحِمُ الصُّفُوفَ ، وَلا يُبالِي بِالْمَخُوفِ ! أَتَرَى ذٰلِكَ مُسْتَحِيلًا ؟

— بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْواقِعِ مِمَّا عَداهُ .

— ثُمَّ خَبِّرْنِي : كَيْفَ تَطْمَئِنُّ إِلَى هٰذا الْخَبَرِ ، وَكَيْفَ تُصَدِّقُ أَنَّهُ لَمْ يُحارِبْ دِفاعًا عَنِ الدِّينِ ، وَذَوْدًا عَنْ حِياضِهِ ؟

أَلَمْ تَصْعَدْ رُوحُهُ إِلَى حَيْثُ صَعِدَتْ ؟ فَكَيْفَ عادَ إِلَى الْعالَمِ الأَرْضِيِّ مِنْ جَدِيدٍ ؛ لِيُخْبِرَ الرُّواةَ أَنَّهُ لَمْ يُدافِعْ عَنْ عَقِيدَةٍ ، وَلَمْ يَقْصِدْ - بِما صَنَعَ - وَجْهَ اللهِ ؟

— لَوْ صَبَرْتَ يا « صَلاحُ » حَتَّى أُتِمَّ حَدِيثِي ، لَما كانَ ثَمَّةَ مَكانٌ لِهٰذا الشَّكِّ !

— عُذْرًا أَيُّها الصَّدِيقُ ، واغْفِرْ لِي تَسَرُّعِي ؛ فَقَدْ حَسِبْتُكَ انْتَهَيْتَ مِنَ الْحَدِيثِ !

— لا حاجَةَ بِكَ إِلَى الاعْتِذارِ .

وَلٰكِنِّي أُذَكِّرُكَ - أَوَّلَ ما أُذَكِّرُكَ - أَنَّ « قُزْمانَ » كانَ مَعْرُوفًا بِالشَّجاعَةِ بَيْنَ الْخاصَّةِ والْعامَّةِ .

وقَدْ جَرَى صِيتُهُ فِي ذٰلِكَ الْبابِ مَجْرَى الْأَمْثالِ ، كَما كانَ مَعْرُوفاً بَيْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُ يُضْمِرُ غَيْرَ ما يُظْهِرُهُ لَهُمْ .

كانَ مِمَّنْ إذا لَقِيَ الْمُسْلِمِينَ ، قالَ : إِنِّى مَعَكُمْ . وَإِذا لَقِيَ الْمُشْرِكِينَ ، قالَ : إِنِّى أَسْتَهْزِئُ بِالْمُسْلِمِينَ .

— الْآنَ اقْتَنَعْتُ بِما تَقُولُ .

فَكَيْفَ أَفْضَى بِسِرِّهِ بَعْدَ انْتِحارِهِ ؟

— مَنْ قالَ لَكَ إِنَّهُ أَفْضَى بِسِرِّهِ بَعْدَ انْتِحارِهِ ؟

— أَلَمْ تَقُلْ لَنا : إِنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ بَعْدَ أَنْ نَجا مِنَ الْمَعْرَكَةِ ؟

— فَهَلْ قُلْتُ لَكَ : إِنَّهُ عادَ إِلَى الدُّنْيا بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَأَخْبَرَ النَّاسَ بِشَيْءٍ ؟

فَكَيْفَ تَقُولُ ؟

— مَرَّ بِـ « قُزْمانَ » ـ وَهُوَ يُحْتَضَرُ ـ أَحَدُ أَصْحابِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُهَنِّئُهُ بِما ظَفِرَ بِهِ مِنَ الشَّهادَةِ ، وَيُبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ . . فَلَوْ سَكَتَ « قُزْمانُ » ، لَصَحَّ ما تَقُولُ .

— فَبِماذا أَجابَهُ « قُزْمانُ » ؟

— لَمْ يَشَأْ أَنْ يَكْتُمَ رَأْيَهُ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْمَوْتَ ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَتَظاهَرَ بِغَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، فَقالَ لِصاحِبِهِ :

« إِنِّي واللهِ ما قاتَلْتُ عَلَى دِينٍ . »

— مَنْ صاحِبُهُ هٰذا ؟

— هُوَ « أَبُو الْغَيْداقِ »

— ثُمَّ ماذا قالَ ؟

— ثُمَّ قالَ : « إِنَّما قاتَلْتُ عَلَى الْحِفاظِ أَن تَسيرَ « قُرَيْشٌ » إِلَيْنا ؛ فَتَقْتَحِمَ حَرَمَنا ، وَتَطَأَ سَعَفَنا ! وَواللهِ ما قاتَلْتُ إِلَّا عَنْ أَحْسابِ قَوْمِي ، وَلَوْلا ذٰلِكَ ما قاتَلْتُ ! »

— يا لَلْعَجَبِ ! لَقَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُ الْمَسْأَلَةِ !

— مَنْ يَدْرِي ؟ فَلَعَلَّ اللهَ قَدْ خَتَمَ لَهُ بِالْإِيمانِ فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ .

— ما أَظُنُّ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ مَنْ يَخْتِمُ حَياتَهُ بِالِانْتِحارِ غَيْرُ جَدِيرٍ بِالْغُفْرانِ .

— ما أَبْعَدَ رَحْمَةَ اللهِ عَنِ الْجُبَناءِ !

— أَتَعُدُّهُ جَبانًا بَعْدَ كُلِّ ما أَبْلَى مِنْ ضُرُوبِ الشَّجاعَةِ وَالْجُرْأَةِ ؟

— أَلَمْ أَقُلْ لَكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ : إِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْخَواتِيمِ دائِمًا ؟

— صَدَقْتَ ، يا « رَشادُ » .

— « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى » .

— « وَمَنْ يُضْلِلْ فَمالَهُ مِنْ هادٍ » .

— وَلا تَنْسَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ وَصَفَهُ أَدقَّ وَصْفٍ ، والرَّسُولُ أَعْلَمُ بِطِباعِ هٰذا الْمُنافِقِ وَأَخْبَرُ !

— ماذا قالَ الرَّسُولُ ؟

— قالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :

« إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفاجِرِ » !

— أَتَظُنُّهُ بِهٰذا قَدْ عَناهُ ؟

— ما أَرَى أَنَّهُ عَنَى أَحَدًا سِواهُ !

مجموعة من حياة الرسول

أضواء من المولد السعيد

القسم الأول

بين عصر الظلام ومطلع الفجر
هجرة الصحابة
شدائد وأزمات
دواعي الهجرة
هجرة الرسول

القسم الثاني

من المولد إلى الهجرة
من ميدان إلى ميدان
مقدمات الحرب
السهم الأول
رؤيا عاتكة
بين السلم والحرب
نقطة التحول
على هامش بدر
قلوب موتورة

القسم الثالث

أحقاد ثائرة
درس لا ينسى
ملتقى الأهوال
خاتمة أحد
ذكريات أحد
بعد عام

القسم الرابع

غزوٌ ثان
صخرة الخندق
مناوشات يائسة
سفير الغدر
بارقة الأمل
حارس النار
عابد الذهب
الباحث عن الحق
كفاح موصول
حسم الشر
صرخة شيطان

القسم الخامس

تفرق الأحزاب
غزوة سلمية
حيرة الأعداء
فتح قريب
شباب قريش

ظهرت حديثا ترجمات

السيرة إلى اللغات :

الإنجليزية والفرنسية
والألمانية والأردية
والإندونيسية

ثمن الجزء ٤ قروش